الصدرة

ان تفسيرات الجوهري (ج 1 ، ص 316) والفيروزابادي (القاموس ، ط كلكتا ، ص 576) عقيمة الجدوى . اذ يقول الاول : « الصدرة التي تلبس » ، ويفسرها الثاني بكلمة الثوب . وارى انها تشير الى ما تشير اليه الكلمة الفرنسية Veste قيست ، مثل كلمتي الصدرية والصديري اللتين سنتحدث عنهما بالتفصيل .

الصدرية او الصدرية

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

واننا نجد فى مذكرات دارفيو (ج 5 ص 282 ، 283) : « بقية ثياب الاتراك فى مدينة الجزائر تنحصر فى قمصلة لا اكمام لها ، والقوم يسمونها صدرية Sadderie . وهي محرومة من تقويرة امامية ومن فتحة خلفية ، ولكن لها ثلاث فتحات ، الفتحة الاولى لامرار الراس ، والفتحتان الاخريان لادخال الذراعين . وهم يدخلون الايدي باديء الامر من الفتحتين ، ويرفعون الذراعين بلطف وهوادة ، فتنساب القمصلة دون ان يشعر بها شاعر ، اما الراس فيمر من التقويرة الوسطية ، وهذه الصديرية تصافح الجسم مباشرة » . ونقرا فى رحلة النقيب ليون (اسفار فى الشمال الافريقي ، ص 6) كلمة « صدرية » ، Sidrea ويعرفها بانها صدارى يلائم الجسم تماما ، وهو محروم من فتحة امامية ، وليس له سوى تقويرتين لامرار الراس والذراعين ». وهذا الثوب يلبسه معظم سكان طرابلس الغرب . ويتحدث الرائد دنهام (رحلات فى شمال افريقيا ، ج 1 ، ص 27) عن صدرية من الحرير » « Sidiria تلبس تحت البنش ، راجع كانين (القاموس ، ج 2 ، ص 340 ، حول كلمة جوستيللو Justillo اذ يقول ان الصدرية لباس تحتاني يلامس الجسد ، ولا اكمام له . ويترجم دونباي (النحو المغربي العربي ، ص 82) كلمة انتريولا Interula بكلمة صدرية او صدرية .

وهذا الثوب كان يرتدى ايضا فى مالطة ، وما تزال القرويات حتى ايامنا هذه يرتدين صدريات لا اكمام لها فى هذه الجزيرة ، وهن يسمين واحدتها صدرية Sidria . (راجع فيسكيه ، رحلات الى الشرق ، ص 6 ، وانظر فاسالي ، اللغة المالطية مج 610) .

الصديري

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

ولكننا نقرا فى بحث الكونت دي شابرول (وصف مصر ج 18 ، ص 108) : « الصديري مشد صغير Petit corset لا اكمام له » . ونطالع فى كتاب لين (لين ، المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 39) : « ويرتدي بعض الناس فى الشتاء ، او بصورة عامة لدى حلول البرد ، صديريا ، اي سترة صغيرة لا اكمام لها ، مصنوعة من الجوخ ، او من الحرير والقطن ، ذات خطوط ملونة » . ولا ارتاب مطلقا فى كون هذا الكساء هو الذي يتحدث عنه بوكوك Pocoke فى كتابه (وصف الشرق ، ص 327 ، ج 1 ، وصف الشرق Beschijving van) hat Oosten فيقول : « ان الحلة التركية تتالف قبل كل شيء ، من نوع كساء قصير لا اكمام له ، منسوج من القطن او من التيل ، ويكون هذا الثوب احيانا مقفلا من الجهة الامامية ، ولكنه مثبت باحدى الجهات » . راجع هيئة الكساء هذا فى كتاب بوكوك السالف الذكر ، ج 1 اللوحة 68 .

الصقاع ، الصوقعة

يفسر القاموس (ط كلكتا ، ص 1051) كلمة صقاع « بخرقة تقي الخمار من الدهن » والبرقع كالصوقعة . اما ابن جني (شرح ديوان المتنبي ، مخ 126 ، ص 103) فيميل الى كنمة صقاع بمفهومها الثاني من المفهومين المذكورين فى القاموس . اذن فالكلمة تشير الى ما يسمى ببرقع ، وكلمة صقاع تشير ايضا ، كما تشير كلمة صوقعة ، الى قطعة من القماش تقي الخمار الدهن الذي تدهن به المراة راسها او تعطره . وعلى هذا فالمسالة هي مسالة طاقية .

الصولق (1)

يخبرنا المقريزي (وصف مصر ، مخ 372 ، ص 350 ، 351) ان السلطان والامراء والجنود كانوا يلبسون الصوالق على الاقبية ايام حكم السلالة التركية (الجركسية) : صوالق بلغاري كبار يسع الواحد منهم اكثر من نصف ويبة (2) غلة مغروز فيه منديل طوله ثلاث اذرع . وهذا النص الذى سبق لكاترمير ان ذكره (تاريخ السلاطين المماليك ، ج 2، ق 1 ، ص 152) يزودنا بجمع كلمة صولق وهي صوالق التى ينبغي اضافتها الى القاموس .

راجع كذلك تعليقه كاترمير التى يستخلص منها ان كلمة صولق كانت تشير الى جيب جلدي كان يضم الى الحزام او المنطقة من الجهة اليمنى . ويظهر من عدة نصوص من كتاب الف ليلة وليلة ان حافظة النقود كانت تشد ايضا الى الصولق .

المضامة

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

ويقرر هوست فى كتابه (اخبار من مراكش ، ص 115) : ان الفرد المراكشي يلبس فوق القفطان اما حزاما من الحرير واما مضمة Modhéma اي حزاما جلديا بابزيم ، ويلبسه رجال البلاط وجلساء الملوك بمثابة زينة ، راجع اللوحة 15 ، الصورة 3 ، ولكن بعض الناس لا يستغنون عن المضامة ، لانهم يلمون اثوابهم بواسطة هذا الحزام ، وبدونه تربكهم ثيابهم اثناء العمل » . ونرى من اللوحة ان القوم يحملون منديلا فى هذا الحزام .

ولا ريب ان هذه الكلمة عربية الاصل ، واعتقد انها الكلمة المؤنثة من الصيغة الثالثة من فعل ضم ».

وافترض كذلك ان هوست ضل فى كتابتها مضمة ، فى حين انها تلفظ جيدا Modhéma وذلك لان ءا تلفظ فى المغرب é ايه .

اذن فالمضامة تعني تماما :
« Res unam rem cum aliâ coniungens »
اي انها حزام يجعل شطري الجهة الامامية يتلامسان، او ، اذا صادفت هوى فى نفوسنا ، هي الحزام الذى يجعل الثوب الواسع يلاصق الجسم .

وبالرغم من ان هذا التخمين يبدو احتماليا ، فانني لن اسكت عن دونباي (النحو المغربي العربي ص 82) وهو يكتب الكلمة (مضمه) (كذا) وينطقها مضمه . وهو يفسرها بأنها حزام من الجلد :
« Cingulum ex corio, une ceinture de cuir.

الطربوش

ينبغي التمييز بين الطربوش الذي يلبس فى مصر والطربوش الشائع الاستعمال فى سورية والاقطار الشرقية الاناى .

ويرى لين (المصريون المحدثون – ج 1 – ص 41 – 42) ان « العمامة تتألف حاليا فى مصر من ثلاث مواد المادة الاولى الكلوتة الصغيرة المسماة طاقية – والمادة الثانية الطربوش الذى هو طاقية (او كلوتة) من الجوخ الاحمر – الملامس للراس كل الملامسة والمزود بقنزعة من الحرير الأزرق العاتك – اما المادة الثالثة والاخيرة فهي القطعة القماشيةالطويلة التى تلف حول الطربوش » .

ويقول فيسكيه (رحلة الى المشرق – ص 182 – 182) : « ان طربوش مصر هو الكلوتة المستديرة المصنوعة من الصوف الاحمر المليد المنتهية بخيوط حريرية قلت او كثرت » . والنساء ايضا يلبسن الطربوش (لين – المصدر نفسه – ص 58) . ونطالع فى كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناكتن – ج 1 – ص 165) : وكان عليه كما ذكرنا الطربوش والشاش (العمامة) . (راجع لين ، الف ليلة وليلة ، ج 1 ، ص 324) .

وجاء فى رحلة فنسان لبلان الشهيرة (ج 2 ، ص 139) : ان نساء القاهرة يلبسن « طاقية صغيرة

---

(1) يرى هوست (رحلة الى مراكش ، ص 119 (Hôst, Nachrichten von Marokos
ان كلمة صوالف Sualf التى لا وجود لها فىالقاموس تشير الى نوع زينة رأس ، نوع عمارة شبيهة بما يدعى عزابة . ولكيلا يظن بأن هذه الكلمة تدل حقيقة على نوع عمارة فانني سأورد النص التالي لدييكو دي هيدو (خطط مدينة الجزائر ص 27 ، مج 4) التى تثبت لنا ان معلومات هوست خاطئة . فنحن نقرا فيه : « جميعهن ، بصورة عامة ، لهن عادة قص كل شعورهن بالموسى ، الشعور الموجودة حول العنق وحول قفا الراس ، حيث البناقة لا تصل ، وهن يقصصن ايضا جزءا من شعر الجبين : بحيث تبقى لهن من جانبي الراس خصل من الشعر ممشطة بعناية تنساب على الصدر : وهن يسمينها صوالف .
ويكتبها بيدرو دي الكالا (مفردات اسبانية عربية (صالف وصوالف) . ولكن كانيس Canês يكتبها (سالف والجمع سنوالف) ويفسرها بأنها خصل الشعر .

(2) الويبة هي مكيال حنطة وهو يبلغ اليوم سدس الاردب (راجع لين المصريون المحدثون ، ج 2 ، ص 417) .

على الراس من قماش غالي الثمن يعلوهـا قيطـان مبروم فى نهايته ندفة او قنزعة » . ونجد فى بوكوك (وصف الشرق ، ج 1 ، ص 328) ان سواد الشعب يلبس بدل العمامة الطاقية الحمراء التى تلتصق بالراس كل الالتصاق . وهي تلبس ايضا من قبل الاعراب (البدو) ويلبسها كذلك المولدون فى مصر ـ ولكن التجار وحاشية الامراء العرب والقسس الاقباط يستعملون الطاقية الاخرى » . وجاء فى كتاب الكونت دي شابرول (وصف مصر ، ج 18 ، ص 108): الطربوش هو الطاقية او الكلوتة الكبيرة الملبدة ـ التى تغطي الراس حتى الاذنين » . وبعد ذلك فى وصف ازياء النساء (ص 113) : « الطربوش هو الغطاء الذي يوضع فوق الطاقية » . ويخص ستيفنس فى كتابه (حوادث سفر فى مصر ـ ص 225) بالذكر « الطربوش الاحمر » من بين ملابس احد تجار القاهرة . انظر هيئة هذه الطاقية فى كتاب بوكوك ـ اللوحة 58 ـ وراجع كتاب ج فيسكيه .

وها قد راينا بفضل نص اورده بوكوك ان هذه الطاقية هي ايضا يلبسها بدو مصر . والواقع ان منتكازه يقرر فى كتابه (قصة رحلة الى اورشليم ـ ص 112) : « ان فرسان البدو يلبسون طاقية صغيرة من التيل » . ونجد فى كتاب كوبان (درع اوروبا) ما يلي : اما العوام فيستترون بقطعة طويلة من القماش الصوفي يلفونها فى كتاب كوبان (درع اوروبا) ما يلي : « اما العوام فيستترون بقطعة من القماش الصوفي يلفونها حول الجسم (بردة) مع طاقية حمراء مزودة بقطعة من التيل الابيض والاسود». ونقرا فى كتاب ستيفنس (حوادث السفر ، الخ ، ج 1 ، ص 224) : « وسرعان ما ارتدى بول الحلة العربية البدوية الاعتيادية : القميص القطني الازرق والطربوش والنعلين البدويين » .

ويؤكد بارثي فى كتابه (جولة عبر صقلية والمشرق،ج2،ص77): ان البدو المجاورين للأسكندرية كانوا يلبسون«الطاقيات الحمراء الصغيرة». وانما يميز الطربوش المصري عن الطربوش السوري وطرابيش البلاد الشرقية الاخرى ـ هو ان الطربوش السوري لا يلامس الراس تماما ـ ولكن له نهاية متدلية الى الوراء او الى الجانب . ونحن نقرا فى احد كتب بكنكهام (رحلة الى بلاد ما بين النهرين ، ج 1 ، ص 6) : « هناك طربوش واسع ـ او طاقية حمراء ـ تتدلى الى الوراء ـ على الرقبة والكتفين » .

ويقول ريشتر فى كتابه (رحلة الى الشرق الاوسط ، ص 68) عن سكان عكا : « يستعملون كعمرة للراس طاقية حمراء تتدلى الى الجانب ـ وتتثبت فى الراس بقطعتين من القماش مرقطتين». وفى موضع آخر (ص 82) يقول عن سكان بعلبك : « يلبسون على رؤوسهم الطاقية الحمراء التى تتدلى الى الجانب » . ويقول بكنكهام (رحلة الى بلاد ما بين النهرين ، ج 1 ص 151) عن رجال اورفه : « يلبسون الطربوش الواسع الذى يتدلى الى الخلف بصورة عامة » . ولعل اوليفييه يتحدث عن الطربوش ايضا فى كتابه (رحلة الى الامبراطورية العثمانية ومصر وفارس ـ ج 4 ، ص 327) حين يقول عن نساء بغداد : « ان زينتهن الاعتيادية الطربوش المخملي الاسود الكبير الذى يتدلى الى الوراء ـ المنتهى بقنزعة من الحرير الاسود او الذهب : فاذا كانت القنزعة من الذهب فان المغارز تكون مغطاة بالحرير او القصب . وهذه الطاقية مثبتة بالراس بشال كشمير (اللوحة 27) . ولكنني لا اريد ان أؤكد ان القضية هنا هي قضية طربوش ـ لانني لم اقع فى موضع آخر على ان الطاقية تكون من المخمل الاسود . وسأجعلكم تلاحظون ايضا ان الطربوش فى الساحل السوري لا يبدو انه يختلف دائما عن الطربوش المصري ـ ذلك لان ريشتر فى كتابه (الرحلة ـ ص 123 ـ الخ) يذكر فى وصف الحلة التى اشتراها من بيروت ـ للولوج الى داخل سورية : « هناك فيس احمر يدعى هنا طربوشا اي طاقية صغيرة مدورة » .

ولعل هذه الكلمة حين استعملت لم تصل الى العرب الا فى مطلع القرن السادس عشر ـ ولم تكن الا تحريفا لكلمة سربوش الفارسية ـ وهي فى العربية شربوش ... حقيقة ان هذه الكلمات تشير الى نوع من عمرة الراس مختلف ـ ولكن كلمة سربوش الفارسية فى غاية الغموض اصلا ـ ما دامت لا تشير الا الى زينة راس على وجه العموم . فمن الممكن كل الممكن ـ كما اعتقد ـ ان هذه الكلمة قد طبقت على انواع من عمارات الراس .

وتسمى هذه الطاقية فى الجزيرة العربية بـ (فس) وكذلك تدعى فى القسطنطينية . وكان الناس يسمونها قديما فى مصر شاشية ـ وهو الاسم الذي ما تزال تحمله فى المغرب . ومع ذلك فان كلمة طربوش ليست مجهولة فى المغرب ـ ذلك لان دونباي فى كتابه (النحو المغربي العربي ـ ص 83) يترجم كلمة طربوش بكلمتي Galericus nautarum وتسمى هذه الطاقية فى اسبانيا غفارة .

الطرحـــة

سبق لكاترمير ان زودنا فى كتابه (تاريخ السلاطين المماليك ـ ج 1 ـ ق 2 ص 21 ـ 22) بتفاصيل حول نوع الخمار المسمى طرحة . ونلاحظ فى تعليق هـذا العلامة التعمق العلمي الذي يميز كل كتاباته . وقـد تحدث كذلك سيلفستر دى ساسي فى كتابـه طرائف عربية ـ ج 2 ص 269) عن الطرحة ـ واستشهد به فريتاك . وسأحرص على اعطاء هذه المعلومات التـي استصفاها هؤلاء العلماء شكلا ـ ان يكن باهتـا مـن الناحية التاريخية فانه خلاف ذلك من جهة اضافـة ثمرة قراءاتي الخاصة اليه .

ولنشرع بوصف طرحة الرجال . فانها خمـار Voile empesé مصنوع من الشاش الموصلى الذي يلاث على العمامة ـ أو يطرح على الكتفيـن فقـط . فيتدلى على الظهر (والطرحة تشبه الطيلسان ـ وان التباين الذي ظن دى ساسي انه قد عثر عليـه بين الطرحة والطيلسان هو ظن وهمي . اذ يرى هذا العالم ان ما يميز الطرحة من الطيلسان ان الطيلسان يوضع على العمامة وان الطرحة تطرح على الاكتـاف . وان كلمات المقريزي (لدى كاترمير) « فوق عمامته طرحة سوداء » و « البس طرحة على عمامته » تؤكد ان هذا الافتراض افتراض لا يقوم على اساس . ونحن نقـرا كذلك فى تاريخ مصر (مخ كاترمير) : « حضر القاضي وعلى راسه طرحة » . وقديما كان الناس يلبسـون الطرحة مع العمامة (عمامة ـ شاش) كما بوسعنا ان نشهد ذلك فى عدة نصوص للمقريزي وفى مسالـك الابصار ولدى النويري ـ وقد استشهـد بها كلهـا كاترمير .

ويظهر ان الطرحة نفسها قد استعملت استعمال العمامة فى العصور الحديثة ـ لاننا نجـد فى وصف مصر (ج 18 ـ ص 109) : « الطرحة قطعة من الشاش الموصلي او جزء من الشال الذي ينساب الى قفـا الراس بعد ان يكون قد التاث عـدة لوثـات حـول الطربوش ـ وهذا النوع من الخمار يقـف بارتفـاع الكتفين ويحدث تأثيرا فى غاية الحلاوة : ويكون احيانا مطرزا او مرصعا بالذهب فى حواشيه » .

وكانت الطرحة لباس القضاة الخـاص ـ بـل شعار قاضي القضاة . وقديما كان لا يحملها الا القاضي الشافعي . (السيوطي لدى دى ساسي ـ ص 267 ـ مالك الابصار لدى كاترمير) . وفى عام 263 من ايام حكم الملك الظاهر بيبرس ـ تلقى قضاة الأربعة السماح لهم باتخاذ الطرح . (المقريزي ـ السلو ـ ترجمة كاترمير) . وهذا ما يؤيده النص التالي الذي استعيره من النويري (تاريخ مصر ـ ج 2 ـ ص 88) . اذ يقول هذا المؤرخ وهو يقص علينا اخبار حـوادث سنة 716) : « فوض قضاء القضاة الحنفية بمصـر للقاضي سراج الدين عمر بن شهاب الدين بن محمود وخلع عليه بطرحة على عادة القضاة » . ولكنني اجـد من المحتم على ان احملكم على ملاحظة ان هذا الامر لا يطابق البتة احد نصوص السيوطي (حسن المحاضرة ـ مخ 113 ـ ص 346 ـ حوادث عام 773) حيث نقرا : « وفى هذه السنة اراد السراج الهندي قاضي الحنفية ان يساوي قاضي الشافعية فى لبس الطرحة وتقرير القضاة فى البلاد وتقرير مودع الايتام ـ فاجيب الى ذلك . فاتفق انه توعك (1) عقب ذلك وطال مرضه الى ان مات ولم يتم الذي اراده » . وعلى هذا نـرى ان شهادة ابن حبيب (درة الاسلاك مخ 425 ـ ص 579) لا تدع اى مجال للشك بوفاة قاضي القضاة الحنفـي سراج الدين الهندي حقيقة فى عام 773 . فهـل فى المقدور حل هذه المعضلة بافتـراض ان القاضـي الشافعي كان هو وحده يلبس الطرحة بصورة اعتيادية ـ ان القضاة الثلاثة الآخريـن لم يكونـوا يلبسونهـا الا فـى المناسبـات الرسميـة ؟ والـواقـع ان القاضي الشافعي هو الذي كان يتمتع فى مصر باحتلال مركز الصدارة ـ واليه كان يعهد الحكم على قضـاة الطوائف الاخرى . (ليون الافريقي ـ وصف افريقيا ـ ص 706) وان الخطباء كذلك (خطبـاء الجوامـع والمساجد) كانوا يلبسون الطرحة . (السيوطي لدى دي ساسي) .

واول من خلع الطرحة كلباس تشريف يكرم به عظماء الدولة وكبراء ضباطها كان الملك السعيد خان 676 (النويري لدى كاترمير) . ونقرا لدى النويري (تاريخ مصر ـ مخ 2 ـ ص 32) : « خلع عليه خلعة الوزارة . وكانت الخلعة جبة عتابي حمراء وفوقـه فرجية زرقاء مسنجبة (مقنذزة) وطرحه (مقايسة مع كلمة فرجية) . ويخيل الي ان طرحة القضاة كانـت سوداء على الدوام .

وقد قلت آنفا ان الطرحة كانت مماثلة للطيلسان ـ

(1) ان التصريف الخامس لفعل وعك لا وجود له فى القاموس . وبوسعكم رؤية مثال آخر فى كتـاب الف ليلة وليلة . (ط مكناكتن ـ ج 1 ـ ص 43) .

وهذه الملاحظة تحتاج الى بعض التحوير ـ لاننا نقرأ للنويري (لدى كاترمير) : « لبس الطرحة والقى الطيلسان » . فهل الفرق بين الطرحة والطيلسان ينحصر في ان الكلمة الاولى تشير الى الطيلسان المقرر Voile empesé ؟ فان ما يدعوني الى هذه العقيدة هو اننا نقرأ للنويري (لدى كاترمير) : « يلبس الطيلسان المقور ويسمى اليوم بالطرحة » . ويتحتم علينا الان التحدث عن طرحة النساء . وهي كذلك خمار يوضع على الراس ويتدلى الى الوراء ـ ولكن هذا الخمار اطول من الخمار الذي يحمله الرجال . ويخبرنا ابو المحاسن (لدى دى ساسي) ان النساء في مصر قد لبسته ايام حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون (693 ـ 741) فاذا آمنا بما يقوله هذا المؤرخ فان هذا النوع من الخمار كان يكلف كثيرا ـ ما دامت كل طرحة كانت تساوي من خمسة الاف الى عشرة الاف دينار . على انني لا اصدق ان هذه الطرح الثمينة كانت تلبس من قبل العموم ـ لاننا نرى من النص التالي للمقريزي ان الطرحة كانت تلبس ايضا من قبل طبقة واطئة من طبقات المجتمع ـ وان هذه الطبقة في الاغلب الاعم كانت فقيرة ـ ومن هذه الطبقة كانت المومسات تلبس الطرح . فنحن نقرأ في كتاب (وصف مصر ـ ج 2 ـ مخ 372 ـ ص 347) : وادركت سوق الشماعين عن الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات (1) لا تزال حوانيتها

---

(1) لا وجود لكلمة طوافة ـ وجمعها طوافات ـ في القاموس . وانني بمنحي هذه الكلمة المعنى المشار اليه في ترجمتي اعتقد بعدم مجانبتي للحقيقة كثيرا . ويخيل الي ان الاستعمال الجاري لفعل طاف يؤيد ذلك . ويقول المقري او بالاحرى ابن سعيد (راجع فريتاك ـ طرائف عربية نحوية تاريخية ـ ص 144) ان الطواف بالليل هم رمادة النشاب الحراس الذين يجوسون خلال المدينة ـ اثناء الليل لالقاء القبض على اللصوص . ويسمى ابن خلدون (راجع دى ساسي ـ طرائف عربية ـ ج 1 ـ ص 132 من النص) الجولات الليلية لهرون الرشيد بالتطواف بالليل ـ والقضية نفسها مبحوثة آنفا (المرجع السابق ـ ص 131) بهذه الكلمات : تطوفه بسكك بغداد » . وهناك نصوص اخرى تشير بالتحديد الى الاستعمال الذي يصلح له السراج المسمى طوافه . اما هذا النوع المضحك من المصابيح المسمى بالفانوس فراجع بشأن وصفه وصورته كتاب (المصريون المحدثون ـ ج 1 ـ ص 225 ـ 226) لمؤلفه ليـن .

وتشير كلمة زعر الى البوهيميين المدعوين كذلك بالرمادية . وعن المشاعلية راجع (كاترمير ـ تاريخ السلاطين المماليك ـ ج 1 ـ ق 2 ص 6)اما عن الزنجية فراجع (كوسان دى بير سفال ـ النحو العربي العامي ـ ص 161) الخ ـ حثالة الشعب . فنحن نقرأ لدى ابن اياس (تاريخ مصر ـ مخ 367ـ ص 44) « التف عليه جماعة من الزعر العياق ». وفي موضع آخر (ص 58) : « ومعه السواد الاعظم من الزعر والعشير » . وبعد ذلك (ص 138) :« ثم ان الزعر تزايد امرهم حتى انهم كسروا باب حبس الرحبة » .

وفي موضع آخر (ص 176) : « ومعه السواد الاعظم من الزعر وغيرهم » . وبعد ذلك (ص 414) : « نثر على الزعر الذهب والفضة بيده فاجتمع تحته الجم الحقير من الزعر والعياق (اى : القعد) . واخيرا (ص 477) : « ثار جماعة من العوام على المحتسب ـ امره (والى الشرطة) بان يقبض على جماعة من الزعر والعبيد ويقطع ايديهم . راجع كلمة عياق تعليقة وردت حول كلمة طرطور . وتعابير (اهل الذعرة ـ الذعارة ـ ذوو الذعارة) تشير الى نفس الصنف من الرجال . وان اميرا متحللا من الاخلاق ـ وهو محمد السادس الغرناطي ـ سماه ابن الخطيب في (الاحاطة ـ مخ دى كايانكوس ص 163) : « مالفا للذعرة » . ونقرأ للمقريزي (لدى دى ساسي ـ طرائف عربية ج 2 ـ ص 26 من النص) : « وكان قد ثار بدمشق جماعة من اهل الذعارة والفساد وحاربوا عمال السلطان واشتد مراهم . وكان كبيرهم يعرف بابن المأورد (وفي رحلة ابن بطوطة ـ مخ دى كايانكوس ـ ص 60) : « اتفق في بعض السنين ان اوتي امير الحاج بصبي من ذوي الذعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج » . وتشير كلمة دعار كذلك الى البوهيميين . فنحن نجد لدى المقريزي (ايراد دى ساسي ـ طرائف عربية ـ ج 2 ص 29 من النص) « وصار في عدة وافرة من الذعار » .

اذن فكلمتا زعيرات الشماعين تعنيان بصورة خاصة : البوهيميين او المصريات ـ بائعات الشمع . والواقع اننا نعلم ان الراقصات العموميات (بائعات الهوى) هن في مصر من طبقة البوهيميات . ونرى فوق ذلك من نص المقريزي كلمة زعارة تستعمل بمعنى Scortatio .

مفتتحة الى نصف الليل . وكان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين لهن سيماء يعرفن بها وزي يتميزن به وهو لبس الملاوات الطرح . وفى ارجلهن سراقيل حمر . وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال السالقين فى وقت لعبهم . ومنهن من تحمل الجديد معها . وكان يباع فى هذا السوق فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل . وقد خرب ولم يبق به الا الخمس حوانيت بعدما ادركتها تزيد على عشرين حانوتا وذلك لقلة ترف الناس وتركهم استعمال الشموع » .

ويخيل الي ان طرح النساء كانت تعمل من الكتان او من القطن – فانني إقرا لدى المقريزي (ج 2 – مخ 372 – ص 354 – 355) : « وفى اوله كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان من الخام والازرق وانواع الطرح واصناف الثياب القطن » .

وفى ايامنا هذه ايضا تعمل الطرحة من الكتان او القطن . اذ يقول لين (المصريون المحدثون – ج 1 ص 60) فى معرض حديثه عن طرز لباس سيدات الطبقة العليا ونساء الطبقة الميسورة : « انهن يضعن على رؤوسهن اما قطعا من الشاش الموصلى الابيض المطرزة الحواشي بالحرير الملون والمرصعة بالذهب واما قطعا من الكريشة الملونة المزركشة بأسلاك الذهب – الخ – او بأسلاك معادن اخرى » . وان الزراكش والتزويقات التي ذكرها لين توضح لنا – مهما بلغت ضآلة هذا التوضيح – السعر الفاحش الذي تباع به الطرح طبقا لرواية ابن المحاسن) وطرحة نساء الشعب ذات لون غامق وهي من الشاش الموصلى او من الكتان . (لين – ج 1 – ص 64) . وتعمل الطرحة فى مصر العليا من قماش صوفي أسمر . (لين – ج 1 ص 69) . راجع هيئة هذا الخمار فى كتاب (لين – ج 1 – ص 57 – 64 – 68) .

واعتقد اننا واجدون الطرحة فى حلب . فعلى الاقل نراها لدى برين فى كتابه (الرحلات – ص 362) اذ يصفها بأنها قطعة كتان بيضاء مشدودة الى عمرونة الراس ومسبلة الى الوراء » . انظر الشكل 189 فى كتابه . على ان طرحة نساء حلب لم تكن طويلة طول طرحة السيدات المصريات . وقد راينا معتمدين على نصين للمقريزي مذكورين آنفا وجوب اضافة كلمة جمع طرحة طرح الى القاموس . وانني اجهل كيف ينطق العرب هذا الجمع – ولكن طبقا لقواعد النحو بوسعنا ان نقول طرح وطرح . (راجع دى ساسي – قواعد النحو العربي – ج 1 – ص 359 – 360) . وقد لاحظ كاترمير (كتابه السالف القيم) ان فعل تطرح قد تولد من كلمة طرحة : اي لبس الطرحة .

الطرطور او الطرطور

لقد سبق لكاترمير (تاريخ السلاطين المماليك ج 1 ، ق 1 ، ص 77) ان تحدث عن الطرطور . ولكن هذا العالم الجليل لم يتحتم عليه ان يؤلف كتابا خاصا عن الملابس عند العرب : اذن فنحن مرغمون على الدخول فى التفاصيل والتوسع فى منعطفاتها ، تلك التفاصيل التي كان بمقدور كاترمير ان يتحفنا بها هنا دون ريب لو انه شاء ، ولكنها لم تستطع ان تحتل محلها فى نطاق شرح على احد المؤلفين .

لا بد ان كلمة طرطور تشير الى : طاقية عالية .

وهذا ما ينم عليه اشتقاق الكلمة . حقيقة ان فعل طرطر لا وجود له فى القاموس الا بالمعنى المجازي : معنى التمجيد Gloriatus fuit ولكن هذا الفعل يعني بصورة عامة الرفعة او الرفع الى الاعلى In altum sustulit elevavit فنحن نقرأ فى كتاب الف ليلة وليلية (ط مكناكتن ج 1 – ص 8) « طرطر ذيله وضرط :

In altum sustulit caudam suam et caca vit

وسنتحدث اول ما نتحدث عن طرطور النساء وبعد ذلك نتناول طرطور الرجال .

نحن نقرأ فى كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناكتن ج1 ، ص 161) ان نصابة استطاعت ان تحصل من عشاقها على ملابس نسائية فالبست عشيقها الثالث الوزير (غلالة زرقاء وطرطورا احمر) . ونجد فى هذا الكتاب: (يوميات رحلات السيد مونكوني ج 1، ص 381 (Le journal des voyages de Monsieur Monconys

ان نساء الشرفاء يضعن « شريطا أخضر فيطرطورهن» وعلى هذا فلا اتردد في التفكير بأن بلون Belon يتحدث عن الطرطور وهو الرحالة الذي زار مصر في الاونة التي كتب خلالها كتاب الف ليلة وليلة ، وذلك حين يصف الطاقية العالية التي تلبسها النساء المصريات اذ يتناول الموضوع في كتابه ملاحظات ص 134 (observations) على هذا المنوال : « ان ملاحظة طراز لباس الراس الذي تتخذه النساء المصريات جديرة للغاية بالتسجيل، ذلك لانه يمثل القدم والعتاقة، كما نرى اشباهه مضروبة في الاوسمة وطبع النقود . وقد سماه المؤلفون التاج المبرج او زينة الراس على هيئة البرج (الاشرطة المبرجة)

Vittam turritam او Turritam coranum او Turritum capitis or namentum

كما لو قال القائل « عمارة راس منصوبة على شكل برج » (1) .

وبالنظر لاهمية غرابة هذا الغطاء الراسي فان شعراءنا اللاتين القدماء لم يغفلوا ذكره فقد تناولوه بالوصف«راجع الصوز المخطوطة في كتاب بلون Belon التي هي ولا مشاحة غير مستوفاة الشروط من الناحية الفنية .

واعتقد انني واقع على الطرطور في ساحل سورية في بيروت . فعلى الاقل يقول تيرنر في كتابه : (يوميات جولة في المشرق ص 81 ج 2) (Journal of a tour in the Levant - Türner عن ابنة مضيفه في هذه المدينة انها كانت تلبس طاقية حمراء في غاية الارتفاع مبثوثة فيها انواع قطع النقود التركية امثال ما يدعى Rubiehs sequins وغير ذلك ، تلك القطع التي قد يرتفع عددها الى مائة وخمسين قطعة على اقل تقدير ، وهذه القطع النقدية مجتمعة على اشرطة حريرية معلقة بسلاسل فضية » .

والواقع ان الطرطور تلبسه النساء المارونيات والدرزيات ، ولكنه لديهن مشغول من احد المعادن . وهذا ما يقوله باجيس Pagès بالحرف الواحد في كتابه « رحلة حول العالم ، ط بيرن 1783 ، ص 141 » Voyage autour du monde

« الطرطور Tantoura هو عمارة راس على هيئة مخروط من الفضة تلبسه النساء الدرزيات (2) . وذكر نابييه Napier كذلك الطرطور Tontura في كتابه « ذكريات عن سورية ، ج 1 ، ص 135 » (Reminiscences of Syria) ويسميه قرن نساء بيروت ، وبعد ذلك (1 ، ص 223) يقول : « الطرطور او قرن نساء لبنان » Tontura or horn . وهناك وصف مفصل عن الطرطور الذي تلبسه النساء اللبنانيات في كتاب المؤلف ذاته (ص 262 ، 264). وان كاترمير حين اورد نص باجيس Pagès حسب من المحتم عليه احلال كلمة Tartoura محل كلمة Tantoura ولكن بالنظر الى ان الكلمة توجد كذلك مكتوبة بحرف النون ((n)) في كتاب نابييه Napier ، وان حرف الراء (r) وحرف النون ((n)) هما حرفان ينتميان الى نفس الفصيلة ويمكن ان يعتورهما الابدال بسهولة في معظم الاحيان ، فلذلك لا يبدو لي من الاستحالة بمكان امكان النطق هذا اليوم بالكلمة بلفظ طنطورة لدى الدروز . وعلى كل حال فان هذه الكلمة ليست سوى تحريف لكلمة طرطور .

وقد تحدث عدة رحالين آخرين عن عمارة النساء المارونيات والدرزيات هذه ، ولكن دون ذكر لاسمها . فنحن نقرأ في رحلة لايت Light (اسفار في مصر والنوبيا والأرض المقدسة وجبل لبنان وقبرص ، ص 220) :

(Travels in Egypt, Nubia, Holy Land, Mount Libanon and Cyprus)

«ان النساء المارونيات والدرزيات يضعن على رؤوسهن انبوبة من القصدير او من الفضة على هيئة مخروط له

---

(1) يقول حافظ ابراهيم في وصف عمامة احد المعممين :

يمشي وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق (المترجم)

(2) ورد ذكر هذا النص من قبل كاترمير (في كتابه الرائع) ولكن في طبعة اخرى .

من الطول حوالي اثنتى عشرة عقدة . ولعل هذا الجسم كان اضخم مرتين من بوق الحوذي » (انظر الصورة). ويقول الرحالة نفسه بعد ذلك (ص 232) فى معرض حديثه عن عروس امير جبل لبنان « كانت تبدو احيانا مرتدية حلة الفطر ، وقد زانت راسها بقرن من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة بدلا من القرن العادي الذي تحمله عادة نساء الجبل الاخريات A golden horn ونقرا فى رحلة تيرنر (ج 2 ، ص 7 5) : « لقد رايت بضع نساء مارونيات خارجات من الكنيسة (بيروت) وكن يلفتن النظر بقرن ضيق يبلغ طوله ثماني عشرة عقدة . وهو مغطي بخمار ويرتفع على الجبهة فى نفس الاتجاه وعلى نفس الهيئة اللذين تصور بهما قرن الكركدن او الحيوان الخرافي كحصان بقرن فى جبهته » . وان طبقة النساء تشير اليها ضخامة القرن والمادة المصنوع منها الجسم ذلك لان بعض هذه الطراطير مصنوع من الفضة ، بل هناك طائفة من الطراطير المصنوعة من الذهب » .

وفى موضع آخر (ج 2 ، ص 67 ، قبل لبنان) : « لقد سالت الآباء Padre كيف تعمل النساء لتثبيت القرن على هذه الصورة المرتفعة للغاية بحيث يغطي الجبين ، فاعلمني بأن هذا القرن يثبت على قفا الراس بواسطة عصابة ، وان شريطا معلقا بهذه العصابة يحيط الجبين وان شريطا آخر يحيط بالعنق ، وان ثقل وضغط هذا الاكليل كانا فاحشين للغاية ، بحيث لم تستطع اية امراة حمله ما لم تكن قد اعتادت عليه منذ الطفولة . اما نساء الطبقة العليا فيلبسن الطراطير الذهبية . واما عوام النساء فيضعن الطراطير الفضية او تنحصر اكاليلهن فى قرن اعتيادي او فى قرن مائل اذا كن ميسورات الحال فاستطعن توفير هذا القرن الرائل » . وبعد ذلك (ج 2 ، ص 68 و 69) : « فى هذه الجبال تلبس النساء نوع قرن لكنه اقصر وهو يمر فوق الاذن اليمنى ويرتفع بزوايا قائمة بدلا من الارتفاع بخط مستقيم . وقد صادفت احدى هاته النسوة فحملتها على خلع قرنها ، وذلك باعطائها بعض البارات . وقد وجدت ان هذا النوع من القرن مشدود بكل بساطة بفضل طرحة،ويكون احيانا مثقوبا لاستطاعة تثبيته بسهولة بالغة » . وبعد ذلك (ج1 ، ص 71) نقرا ان الرحالة على علم بأن النساء اللواتي يحملن القرن على الجبين هن مارونيات ، وان اولئك اللواتي يحملنه على الاذن هن كذلك فى الاغلب الاعم مارونيات ولكنهن فى بعض الاحايين درزيات ، ونحن نقرا اخيرا فى موضع آخر (ج 2 ، ص 73) : « لقد اقنعت المراة المارونية بخلع قرنها (وكان يرتفع فى خط مستقيم) وان تريني اياه ، وكان هذا القرن مصنوعا من الفضة ، دون زينة اخرى ، اللهم الا عدة ثقوب صغيرة مستحدثة فيه على مسافات متساوية » . راجع كذلك (ريشتر رحلة الى الشرق ، ص 90 – 91)

Richter, Wallfahrten in Morgenland

وسنتناول الآن بالحديث طرطور الرجال . وقد كانت الطاقية الاعتيادية لبدو مصر . فنحن نقرا فى كتاب الف ليلة وليلة (ط مكناكتن ، 1 ، ص 365) ان سيدة فى مقتبل عمرها قالت للامير (شركان) بعد ان صرعته فى مبارزة ، وهي تضحك : « كانك طرطور بدوي تقع من بطشة » . والبطشة هي الضربة . وهذا المثل موجود كذلك فى كتاب بركهارت حول الامثال المصرية العربية المحدثة رقم 398 . ولكن قد اشير اليه بنجمة وهذا يعني انه لم يعد شائع الاستعمال فى مطلع هذا القرن . ونحن نقرا فيه طرطوري يقع من لطشة . وعلى رغم بركهارت ولبو بل برغم فيشر (Arab. proverb) (M. Fleischer - de glossis Mabichtianis, p. 80) الذي يخيل الي انه يذهب نفس المذهب ، فانني لا يسعني التسليم بأن (طرطوري) هو شكل آخر من طرطور اذ انني على النقيض من ذلك اترجم طرطوري بكلمتي mon tartour (طرطوري) اى الطرطور العائد لي . اذن فمعنى المثل الذي اورده بركهارت فى مذهبي « طرطوري يقع من ضربة واحدة (1) ومعنى ذلك انني رجل لين العريكة مطاوع بحيث ان اهون شيء يحملني على تبديل رايي . وفى نص آخر من نصوص الف ليلة وليلة (ط مكناكتن ، ج 1 ، ص 419) يقسم بدوي بطرطوره فيقول : وحق طرطوري . وبطبيعة الامر يفضي بنا هذا الى البحث عن ماهية الطاقية العالية التي يلبسها بدو مصر فى القرن السادس عشر ، بل فى العصور الاقدم . وعلى ذلك فان مؤلف حكاية (فون خيستلا فى رحلاته ! ص 30 Van Ghistele (T, Votage van Mher Joos va Ghistele)

يقول بالحرف الواحد : « انهم يحملون على رؤوسهم

---

(1) تعني كلمة لطشة فى اللهجة المصرية ضربة لا هي بالعنيفة ولا الخفيفة – تعليق بركهارت . راجع ملاحظة فليشر القيمة فى كتابه : A. de glossis Habichtianis ص 80 .
واعتقد وجوب احلال كلمة لطشة محل كلمةبطشة فى نص الف ليلة وليلة المذكور اعلاه .

برانيط حمراء واسعة . مصنوعة من اللباد المعرط في الكثافة (الكثاف) وهي على هيئة شبه بيضوية مسطحة . اذن فهذا الاكليل يماثل تاج الاسقف ، البرطل ، الطابية Mitre ولكنه ليس مدببا من الاعلى . وحول هذه الطاقية يلفون ثلاث او اربع لفات قطعة من الشاش والعمامة) . ونقرا في كتاب سالينياك (رحلة الى اورشليم ، ج 8 ، ف 2) :

Itinerarium Hierosol. VIII, cap. 2

« انهم يكتسون بجلود الحيوانات وبطاقية عالية ، مثل الاتراك » . ويجزم دلشيور فون سيدلتز ، في كتابه : (وصف حقيقي دقيق لزيارة الاماكن المقدسة ، ص 361)

« Gründliche Beschreybung der Wallfahrt » :

« ان اطفال البدو يعدون بين الماشية وهم لابسون طاقية مدببة سنجابية اللون » .

ونجد في قصة هيلفريتش ، وصف رحلة مختصرة ، ص 379

« Hellfrich (Kurtzer unnd wahrhafftiger Bericht von der Reysz » :

« ان البدو يلبسون في رؤوسهم قبعة حمراء مدببة زباء (مزببة ، محوطة بقطعة من القماش الابيض » . (مسورة بالعمامة ؟) وفي قصة الامير رادزيفيل ، ص 38 ، الحج الى اورشليم

(Jerosolymitana peregrinatio)

ان الطيارة للبدويين Tiara (تاج البابا ، تاج قدماء الفرس) مذكورة ايضا . ونحن نقرا في رحلة مسكازا ص 112 ، قصة رحلة الى اورشلم :

(Relatione del Viaggio di Gierusalemme)

« انهم يضعون على رؤوسهم نوع قبعة عالية محرومة من الثنيات ، لونها اسود ، وترتفع اطرافها من الاعلى مستديرة اكثر قليلا من اصبع .

ولم اجد الطرطور او الطاقية العالية للبدو المصريين مذكورين من قبل الرحالين الذين زاروا مصر بعد منتكازا . (زار منتكازا الشرق عام 1600). ويخيل الي ان الطرطور لديهم قد اقيم مقامه الكلوته المسماة بالطربوش الذي كما سبق ان قلنا آنفا ، في معرض حديثنا عن هذا الاكليل ، كان يلبس سابقا من قبل الفرسان البدو ، ايام كان هذا الرحالة الايطالي موجودا في مصر .

ونحن نعلم ان البداة المصريين ، وهم رجال غلاظ الاكباد قساة القلوب محرومون من الحضارة ، كانوا يعانون ما يعانون من فظائع الازدراء والاستعلاء من جانب سكان مصر المتمدنين المزعومين . اذن فلن يبدو على شيء من الغرابة نظر سكان المدن الى هذا الطرطور الهائل الذي يضعه البدو على رؤوسهم نظرة مضحكة مستخفة ، لواقع انهم كانوا يضعون دائما على راس المجرم ، او على راس العدو المقهور ، طرطورا ويطوفون به على هذه الشاكلة الوحشية في الشوارع والدروب . والحقيقة اننا نقرا في تاريخ مصر للنويري (مخ 2 ، ص 99) : « وابو ركوة على جمل . وعلى راسه طرطور . وطيف به على هذه الصفة وخلفه قرد يصفعه . ثم صلب وضربت عنقه . وجهزت راسه الى البلاد . وفي موضع آخر (مخ 2 ، ص 108) : فحلقوا ذقنه . والبسوه طرطورا . وسمروه . وطافوا به المدينة السلطانية (1) .

---

(1) ابو ركوة امير من البيت الاموي في الاندلس . وقد حاول ان يخلع خليفة مصر الحاكم بأمر الله عن العرش ولكن خانه اتباعه وسلموه . راجع حول الموضوع فيما تراجعه هامر بركستال في كتابه (قاعة الرسم لاعظم سلاطين الاسلام ، ج 3 ، ص 345 – 346) :

« Hammer-Purgstall, Gemäldesaal groszer Mos-limischer Herrscher » :

وان فعل سمر ، في الصيغة الثانية ، يعني تثبيت مجرم بالمسامير على صليب وصلبه . ولما كان هذا الفعل كثير الذيوع لدى المؤرخين ومفسرا اسواء تفسير في القاموس ، فمن المحتم علي ان ادخل بصدد هذا الموضوع في بعض التفصيلات . فان كلمة مسمارة تعني القطعة المعروفة من احد المعادن. فكلمة مسمار تشير الى هذا الجسم المعدني . فنحن نقرا في رحلة ابن بطوطة (مخ دي كاياتكوس ص 194) : ثم صرفه واعطاه اموالا طائلة وفي جملة ما اعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها . كل ذلك من الذهب الخالص . وقال له : اذا نزلت من البحر فانعل فرسك بها . وفي تاريخ مصر للنويري (مخ 7 ، ص 154) : عشرة مسامير من الذهب . وفي كتاب ابن بطوطة : مسمار فضة . وفي موضع آخر : مسامير الفضة . ومن هذه كلمة مسمار تعني القطعة المعروفة من احد المعادن . للنويري (مخ 2 ، ص 479) : اخرج فسمر على خشبة . وبعد ذلك (ص 482) يقول المؤرخ عن الشخص نفسه انزل شنشول عن خشبته. ونجد في تاريخ مصر للمؤلف نفسه (مخ 19 ، ص 138) : بات في ليلة الاثنين على خشبة التسمير . (وسأتحدث تاليا عن كلمة خشبة وجمعها خشب وعن مختلف مدلولاتها . راجع في كلمة طاقية التعليق (3) . ولكن ليس من الضروري اضافة كلمتي على خشبة او —

وسانشر بهذه المناسبة نصا لابن اياس ممتعا للغاية من عدة وجوه . فنحن نقرا فى تاريخ مصر (مخ 637 ، ص 16 وما جاء بعدها ، حوادث عام 787) لهذا المؤرخ من الحوادث ان السلطان رسم بابطال ما كان يعمل يوم النوروز . وهو اول يوم من السنة القبطية . ومما كان يعمل بالديار المصرية ذلك اليوم انه كان يجتمع فى ذلك اليوم السواد الاعظم من العوام وغيرهم من الاسافل . ويركبون منهم شخصا خليعا على حمار وهو عريان وعلى راسه طرطور خوص فيسمونه امير النوروز ، ويكون ذلك قوى الطباع فيتوجه الى بيوت الاكابر واعيان الناس ويقف على الابواب ومعه السواد الاعظم من الاسافل فيكتب على صاحب تلك الدار الوصولات بالجمل الثقال وكل من امتنع من العطا بهدلوه وسبوه ولو انه اكبر من فى القاهرة . ولا يزالوا مرسمين على بابه حتى ياخذوا منه ما قرروه عليه وياخذوا منه ذلك القدر غصبا وكان منهم طائفة يقفون فى الطرقات ويتراشقون بالماء المنجس او بالخمر ويتراجمون فى وجوههم بالبيض ويتصافعون بالاخفاف على رقابهم ويتراجمون بعمائمهم حتى قيل فى المعنى :

(الطويل)

بداري رجال للجنون ترجلت

عمائمهم عن هامهم والطيالس

فللراح ما زرت عليه جيوبها (حبوبها)

وللماء ما دارت عليه القلانس

مساحب من حر الزقاق على القفا

وصفع بانطاع حبي ريالس (كذا) .

وكانوا يقطعون الطريق على الناس ويمنعونهم من الخروج فى ذلك اليوم الى الاسواق . وتغلق فى ذلك اليوم الدكاكين وتتعطل الناس عن البيع والشرى . وكل من ظفروا به فى الطريق بهدلوه ولو كان من اعيان الناس او من الامراء فيرشونه بالماء المتنجس ويرجمونه بالبيض حتى يفدي نفسه منهم بشيء حتى يخلص من ايديهم فيحصل للناس فى ذلك غاية الضرر ويتعطل عن اسبابهم . وكانوا يتجاهرون ذلك اليوم بشرب الخمر وكثرة الفسوق فى اماكن المفترجات حتى يخرجوا فى اليوم عن الحد . وربما كان يقتل فى ذلك اليوم جماعة مما يعربدوا على بعضهم فى السكر والعياقة . وكان هذا الامر ماشي بمصر على القاعدة القديمة من الدولة الماضية ولا تنكر ذلك من ذلك (فى الدول الماضية ولا ينكر ذلك) وكان فى ذلك اليوم يحمل الى اكابر مصر من الاقباط والمباشرين اصناف الفواكه وغيره من جميع الاصناف . وكان يوم النوروز من اجل المواسم بمصر . فلما تسلطن الظاهر برقوق امر بابطال ما كان يعمل فى ذلك اليوم وارسل الحجاب مع والي القاهرة ومعهم المماليك السلطانية . فطافوا باماكن المفترجات وقبضوا على من وجدوه من العياق من يفعل ذلك وضربوه بالمقارع . وربما قطعوا ايدي جماعة منهم واشهروهم . واشهروا النداء بالتهديد على من يفعل ذلك بالشنق والتوسيط . فرجعوا الناس عن ذلك من يومئذ وانكفوا عما كانوا يفعلونه فى ذلك اليوم فى اماكن المفترجات ونحو ذلك

— على خشب للتعبير عن تسمير احد على صليب . فان فعل سمر يكفي للاعراب عن الفكرة ، فكرة هذا النوع من التعذيب المسمى تسميرا . فنحن نجد فى تاريخ مصر للنويري (مخ 2 ، ص 170) : فطولع السلطان فى امرهم وامر بتسمير الخمسة فسمروا تحت القلعة . وشفع بعض الامراء فى اطلاق المراة . واطلقت وفكت المسامير فماتت بعد ايام . وفى موضع آخر (ص 186) امر بتسمير جماعة كانوا معتقلين بخزانة البنود . وفى مجلد آخرمن نفس الكتاب (مخ 2 ، ص 108) : سمروه وطافوا به المدينة .

وهذه الواقعة ذكرها المقريزي من حوادث سنة سبع وثمانين وسبعمائة (1) .

وليس هناك ادنى ريب فى ان ابن اياس يلمع هنا الى كتاب السلوك للمقريزي ، وهو السفر الذي خلت منه مكتبة ليدن واأسفاه !

ولعل اناسا سيتناولونني باللـــوم على نشـــري وترجمتي للنص بتمامه : ولكن يخيـــل الـــي ان من الغرابة كل الغرابة المثور فى الشرق على عيد يشابه، مهما كانت المشابهة ضئيلة ، عيد مجانين العصـــر الوسيط والكرنفال ، بحيث استطيع ان اقرر نشـــر بضع فقرات فقط من هذا النص ... لذلـــك كـــان لا مناص لي من نشر النص بأكمله . وساحملكم مـــرة اخرى على ملاحظة ان احتفالا مثل هذا يقام فى بعض افطار الشرق ، فى مطلع شهر رمضان . راجع وصف احد هذه الاحتفالات فى كتاب تيفنو ، ص 287 ، 279، حكاية رحلة الى المشرق :

« Relation d'un voyage fait au Levant » :

واعتقد ان المعنى هو الطرطور فى النص التالي لتيفنو فى كتابه المذكور ، ص 69 ، الذي وصف الزينة فى حلب (2) بالعبارات التالية : « ان اجمل ما فى هـــذه الزينات هو رؤية مسيرة اصحاب الحرف . فقد بدات هذه المسيرة بمرور الاساكفة الذين كانوا يمشـــون بنظام . وقد انطلقت المسيرة بادىء ذي بدء يتقدمها

تعليـــق (1) .

(*) راجع حول كلمة خليع فليشر فى كتابه السالف ص 95 .

(*) راجع كذلك لين الف ليلة وليلة ، ج 2 ، ص 377

(*) ان فعل بهدل يعني اهان . راجع الف ليلة وليلة، 7 هابخت ، ج 6 ، ص 143 ، وقويميس الكلمـــات المضاف الى المجلد السابع من هذا الكتـــاب .ونحن نقرا فى موضع آخر من كتابابن اياس (ص 386) ثم قال السلطان) ايش اعظم ما تبهدوا به الناسعندكم . قال نرميهم بثيابهم فى الماء . وارى ضرورة احلال كلمة تبهدلوا محل كلمة تبهدوا ، وتوجد كلمة بهدلة فى نص آخر من كتاب المؤلف المذكور . فنحن نقرا فيه (ص 452) . وقد حصل للقـــاصد من العوام غاية البهدلة منالسبوالرجم وغير ذلك.

(*) يجب اضافة التصريف السادس من فعل رشالى القاموس . وكذلك التصريف السادس من فعـــل صفـــــع .

(*) لقد حذفت البيت الثالث لانني اعترف صراحةاني لا افهم شيئا منه مطلقا ، والمخطوطة كثيرة الاخطاء فى هذا الموضع .

(*) لا وجود لكلمة مفترجات فى القامـــوس . وفىنص آخر من مخطوطة ابن اياس (ص 296) توجـــد هذه الكلمة مكتوبة مشكلة على هذه الصورة مفترجات . ونقرا فيه : وكان يحب التنزه والمفترجـــات (العاهرات) . ونجد فى موضع آخر (ص 74) « ان احدا لا يخرج الى المفترجات قاطبة (منع ذلك السلطان) . وبعد ذلك (ص 297) : وقد تقدمما كان يقع له فى المفترجات . واخيرا (ص 415) : « وهو كلام ملحن مطول . وصاروا يغنون به فىاماكن المفترجات» . ويجب علي ان احملكم على ملاحظة انني لم اجد هذه الكلمة لدى اى مؤلف آخر ، وانالمؤلفين الاوربيين ، الذين يذكرون فى معظم الاحيان الاسم الذي كانت تحملة المومسات فى زمانهم فى الشرق لا يسمونهن ابدا مفترجات .

(*) لا وجود لفعل شهر بهذا المعنى فى القاموس ، الا فى التصريف الثاني . ولكن التصريف الرابع يعبر احيانا عن نفس الفكرة . فنحن نقرا فى موضع آخر من كتاب ابن اياس (مخ ، ص 66) : سمرهـــم واشهرهم فى القاهرة . وبعد ذلك (ص 180) :
اشهرهم فى القاهرة على جمال . وفى موضع آخر (ص 416) : ضربه المقارع واشهره فى القاهرة . وفى مجموعة القطع المختارة الخاصة بالدروز (لدى دى ساسي ، طرائف عربية ، ج 2 ، ص 90 من النص) : اشهارك بالقاهرة المقدسة وبشوارعمصر وازقتها .

(*) راجع حول العذاب الفظيع المسمى بالتوسيط سيلقيستر دى ساسي ، طرائف عربية ، ج 1 ، ص468 وكذلك كاترمير ، تاريخ السلاطين المماليك ، ج 1، ق 1 ، ص 72) . وعلاوة على ذلك بمقدوركم مراجعة اتيين دى كنبنبير وغيره .

(2) راجع حول كلمة « زينة » كاترمير (تاريخ السلاطين المماليك ، ج 1 ق 1 ، ص 29) .

رهط من الصبيان الذين كانت رؤوسهم مغطاة بطراطير ورقية مدببة على هيئة قوالب السكر (1) Pains de sucre . وما يزال الدراويش يلبسون الطراطير . اذ يقول لين بصراحة فى كتابه (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 369 ، ج 2 ، ص 190) ان بعض الدراويش يلبسون الطراطير او الطاقيات العالية المعززة قممها بقنازع من قطع الجوخ المختلفة الالوان، والتي عادة لها شكل قوالب السكر . وانني اقرا فى رحلة ستوكوف الى المشرق ، ص 433 ، وهو يتحدث عن دراويش القاهرة :

« كان واضعا على راسه طاقية معمولة على هيئة قالب سكر مغطاة كلها بآلاف الريشات الصغيرة من مختلف الألوان » . وفى حكاية كوبان Coppin (درع اوروبا ، ص 131 : Le Bouclier de l'Europe) « يلبس الدراويش طاقية مشغولة على هيئة قالب سكر » . وفى يوميات اسفار دى مونكونى ، ج 1 ، ص 167 : « انهم يضعون على رؤوسهم طاقية فخمة من اللباد الوردي المعمول على هيئة قالب السكر ، وكانت احداهما تشابه كل المشابهة تاج الاسقف او البرطل او الطابية ، وتحف بها نقوش على صورة ازهار خضراء زاهية اخاذة ، وقد وجدت احدى الطاقيات الملفوفة عليها لفافة بيضاء كتلك التي تكور بها العمامة». انظر للمقارنة الصورة المرقمة 19 ، الملصقة فى الصفحة 346 من الجزء الاول ، وتمعن كذلك فى الشكل الموجود فى كتاب بوكوك ، رحلة الى الشرق ، ج 1 اللوحة 58 .

ولعل من المحتمل الراجح ان دراويش سوريا يلبسون كذلك الطاقيات العالية المسماة بالطراطير ، وهذا مؤيد بشهادة روجيه فكتابه (الارض المقدسة ، ص 245 La Terre Sainte, p. 245) يقول : « انهم يعتاضون عن العمامة بالطاقية البيضاء المشغولة من اللباد الذي يصل سمكه احيانا الى عقدة وارتفاعه الى قدم » . ويقول دارفيو D'Arvieux كذلك فى كتابه (مذكرات ، ج 6 ، ص 465) وهو يتحدث عن دراويش حلب : « ان ما يميزهم عن سواهم هو طاقية من الصوف الابيض ، مفرطة فى الطول ومدببة كل المدببة » .

والطرطور يلبسه كذلك الفرسان الاتراك الذين يطلق عليهم كلمة دلى Delis (راجع بركهارت ، الامثال العربية ، الرقم 149 ، حول مثل : جندي ما قبل شيع طرطوره) .

اما عن طرطور اتراك مدينة الجزائر فبوسعكم مراجعة الوصف الدقيق الذي دبجته براعة دييكو دى هيدو فى كتابه (خطط مدينة الجزائر : ص 20 ، مج 3 و 4) .

وهذا المؤلف يكتب الكلمة على هذا الشكل : تورتسورا : Tortora .

الطلس

يذهب القاموس اط كلكتا ، ص 772) الى ان الطلس هو (الطيسان الاسود) (2) .

الطيلسان ـ الطيلسان

ان التفاصيل التى اوردتها حول كلمة طرحة تجيز لي الايجاز فى معرض التحدث عن الطيلسان .

يقول لين (الف ليلة وليلة ـ ج 2 ـ ص 512) عن الطيلسان ما يلي : « لم تتح لي الفرصة ابدا لفحص الطيلسان وعلى ذلك فليس بمقدوري ان اصفه وصفا دقيقا . ولكنني اعتقد انه نوع بسيط من الخمار الذى يطرح على الراس والكتفين . او يلقى احيانا على الكتفين فقط . وهو خاص بالفقراء او باساتذة الفقه والشريعة (3) . وهذه التفاصيل صحيحة ودقيقة ـ وبوسعكم الاقتناع بالرجوع الى مقالتي عن الطرحة .

وقديما كان الطيلسان لا يلبس الا من قبل علماء الشريعة ـ ومن هنا جاء التعبير الوارد فى كتاب ابن حبيب (مخ 425 ـ ص 383) : اهل السيف والطيلسان ـ ولكننا راينا آنفا ان الطرحة قد ارتداها ايضا كبراء مصر ـ ابتداء من عام 676 فانقطعت عن كونها لا تلبس الا من قبل القضاة واولئك الذين لم يكونوا يمارسون الا سلطة روحية وقضائية.

---

(1) قالب السكر ما نسميه نحن (كلة الشكر !) .
(2) لعل المؤلف اراد ان يكتب (الطيلسان) فخط (الطيسان) . (المترجم) .
(3) ويضيف قائلا : « انني ميال للظن بأن الطيلسان شبيه بأوشحتنا وقلانسنا الاكاديمية ـ ليس من ناحية المظهر فحسب ـ وانما من جهة الاصل .

وكذلك شأن الطيلسان . فنحن نقرأ مثلا فى تاريخ مصر لابن اياس (مخ 367 ــ ص 41 ــ 42) « فلما وقعت عينه على الملك الظاهر جرى وقبل يده وقال للظاهر برقوق : « انت استاذنا كلنا ونحن مماليكك قاطبة » . ثم ان برقوق قام ولبس عمامته ولف عليها طيلسانا كبيرا » .

ونقرأ فى نص للسيوطي (حسن المحاضرة ، مخ 113 ، ص 308) « ان الطيلسان المقور كان يعطى كلباس تشريف (خلعة) لامير الجيوش » .

وفى رحلة محمود بن جبير (مح 320 ــ ص 46) نجد ان الخطيب فى مكة كان يرتدي الطيلسان من الكتان الرقيق (وعليه طيلسان شرب رقيق) . ويذهب ابن بطوطة (الرحلة ــ مخ دي كايانكوس ، ص 64) الى ان الطيلسان كان اسود اللون (عليه طيلسان اسود) .

وفى الاندلس كان الطيلسان معروفا على وجه الاجمال .. كان معروفا وشائع الاستعمال بصورة عامة بين الكبراء ولدى عامة الشعب ــ ولكنه كان يرتدى فوق الكتفين ــ ولم يكن يضعه على الراس الا شيوخ المشايخ (المقري ــ او بالاحرى ابن سعيد ــ لدي فريتاك ــ طرائف عربية ونحوية وتاريخية ــ ص 148) . ولا ريب انهذا الخمار هو الطيلسان الذى نرى الشيخ العجوز يرتديه وسط اللوحة 65 من كتاب Cavanah Murphy الرائع : « الآثار العربية فى اسبانيا :

« The Arabian Antiquities of Spain »

ونقع فى كتاب ريحان الالباب (مخ دي كايانكوس) على النص الذى يبعث على التأمل والملاحظة : « ثم مات هشام ــ ويقال بل قتله المعتضد ــ ومشى فى جنازته دون طيلسان راجلا مشي الحجاب » .

ويتحدث حاجي خليفة (ط فلوكل ــ ج 1 ــ ص 162) عن كتاب معنون : « الاحاديث الحسان فى فضل الطيلسان » . وهناك نسختان من هذا الكراس فى مكتبة الاسكوريال .

الطـــاق

يذهب القاموس (ط كلكتا ، ص 1307) الى أن الطاق هو الطيلسان او بالاحرى الطيلسان الاخضر (ضرب من الثياب والطيلسان او الاخضر) .

الطاقيـــة وجمعهـــا الطواقـــي

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

وتعني فى اللغة العربية كلوتة صغيرة تلبس تحت العمامة . ولعلها من اصل فارسي ــ ولكنني يجب ان أحملكم على ملاحظة ان الكلمه لا تشير فى فارس الى كلوتة صغيرة ــ ولكنها تومىء على ما يبدو الى نوع عصابة توضع على الراس .

يقول مير خوند Mirkhond (ص 66 ــ تاريخ السلاجقة) فى معرض حديثه عن السلطان السلجوقي الب ارسلان « وطاقية » نيزبن سرمي نهاد كويندكه از سر طاقيه تانهايت لحيه ، او دو كز در نظر بيننده آمدي» . اما خوندمير Khondemir (حبيب السير ، ج 2 ، مخ فارسية 296 ، ص 204) فيقرر نفس الواقعة بهذا الكلمات : « وطاقيه طولاني (اقرا نيز) بر سر ميكذاشت ــ جنانجه بيننده از بدايت طاقيه تانهايت لحيه دو كزمي بينداشت » (1) . وهذا النص الاخير يجب ان يترجم على هذه الصورة « كان يلبس فى راسه طاقية طويلة ــ بحيث ان من يرى هذا الانسان يلمح ذراعين من الطاقية ــ انطلاقا من موضع عقد هذه حتى اللحية » . والجدير بالملاحظة ان مير خوند وخوندمير يعدان الطاقية من بين الصفات الحسنة ــ بل من بين الصفات الاخلاقية العالية للسلطان . ومع ذلك فانني اعتقد ان ابن بطوطة (الرحلة مخ دي كايانكوس ــ ص 82) حين يقول ــ فى مقاله عن اصفهان « وطلبت منه ان يلبسني طاقية من راسه » كان الموضوع فى هذا النص موضوع عرقية او كلوتة ــ ذلك ان هذا على الدوام هو معنى هذه الكلمة لدى الكتاب العرب . فنحن نقرأ فى وصف مصر للمقريزي (ج 2، مخ 372 ، ص 358) النص التالي ــ العظيم الاهمية « سوق البخانقيين هذا السوق فيما بين سوق الجملون الكبير وبين قيسارية الشرب الآتي ذكرها

(1) يجب اضافة فعل بينداشتن الى المعاجم الفارسية .

ان شاء الله تعالى عند ذكر القياسر . وباب هذا السوق شارع من القصبة ويعرف بسوق الخشيبة تصغير خشبة فانه عمل فى بابه المذكور خشبة تمنع الراكب من التوصل اليه . ويسلك فى هذا السوق الى قيسارية الشرب وغيرها . وهي معمورة الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع الكوافي والطواقي التى يلبسها الصبيان والبنات . وبظاهر هذا السوق ايضا فى القصبة عدة حوانيت لبيع الطواقي وعملها . وقد كثر لبس رجال الدولة من الامراء والمماليك والاجناد ومن يتشبه بهم للطواقي فى الدولة الجركسية وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ويمرون كذلك فى الشوارع والاسواق والجوامع والمواكب لا يرون بذلك بأسا بعد ما كان نزع العمامة عن الراس عارا وفضيحة . ونوعوا هذه الطواقي ما بين اخضر واحمر وازرق وغيره من الالوان . وكانت اولا ترتفع نحو سدس ذراع ويعمل اعلاها (مدور مسطح) . فحدث فى ايام الملك الناصر فرج منها شيء عرف بالطواقي الجركسية يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو الثلثي ذراع واعلاها مدور مقبب بالفواقي بتبطين الطاقية بالورق والكثير فيما بين البطانة المباشرة للراس والوجه الظاهر للناس . وجعلوا من اسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الاسود يقال له القندس فى عرض نحو ثمن ذراع يصير دائما بجبهة الرجل واعلا عنقه . وهم على استعمال هذا الزي الى اليوم . وهو من اسمج ما عانوه . وتشبه بالرجال فى لبس ذلك النساء لمعنيين احدهما انه فشا فى اهل الدولة محبة الذكران فقصد نسائهم التشبه بالذكران لتستملن قلوب رجالهن . فاقتدى بفعلهن فى ذلك عامة نساء البلد . وثانيهما ما حدث بالناس من الفقر ونزل بهم من الفقر والفاقة . فاضطر حال نساء اهل مصر الى ترك ما ادركنا فيه النساء من لبس الذهب والجواهر بل ولبس الحرير حتى لبسن هذه الطواقي وبالغن فى عملهن من الذهب والحرير وغيره وتواصين على لبسها . ومن تأمل احوال الوجود عرف كيف تنشأ امور الناس فى عاداتهم واخلاقهم ومذاهبهم » .

ولعل مؤلف رحلة فان خيستلا (ص 48) يتحدث عن الطاقية — وكان زار مصر عام 1481 — اي بعد وفاة المقريزي باربعين سنة — فعبر عن خواطره فى معرض الكلام عن المماليك بالكلمات التالية : « ثمة ناس يضعون على رؤوسهم البيريهات — اي الطواقي المستديرة العالية . وهذه الطواقي ضيقة من الاسفل وعريضة من الاعلى — والجزء الواطيء منها مصنوع من المخمل ومن نسيج آخر — اما الجزء الاعلى فمشغول من الصوف الاخضر الرديء» . فاذا لم اكن متوهما — فان بيير مارتير السفير الفرنسي لدى قنصوة الغوري عام 1501 يتحدث فى كتابه (سفارة بابلية — ص 401) عن الطاقية ايضا . واليكم كلماته : « ان المماليك الذين هم فى خدمة السلطان يلبسون طواقي من الصوف — وهي ثقيلة الوزن وقاسية الملمس — وتتالف من لونين مختلطين — اللون الاول الاخضر فى الاسفل — واللون الثاني الاسود فى الاعلى » .

وبالرغم من انطباق هذه الاوصاف بعض الانطباق على أوصاف المقريزي — فانني ارى من المحتم علي ان اعترف بأن التفاصيل ليست هي نفسها بالضبط (ولكن ما لنا لا نفترض ان طاقية المماليك كانت عرضة لتحويرات اقتضتها الطرز المستحدثة ؟ الم يخبرنا المقريزي نفسه ان طاقية المماليك قبل حكم الملك الناصر فرج كانت تختلف اختلافا جوهريا عن الطاقية التى يلبسها هؤلاء المماليك فى عهده) .

وفى ايامنا هذه تشير كلمة طاقية فى مصر الى نفس ما تشير اليه العرقية — اي الى كلوتة صغيرة من القطن تلي الراس تماما — كما يقول لين (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 41) . ويرتديها افراد الجنسين تحت الطربوش (المرجع السالف — ص 58) الذي حوله تلف قطعة من القماش — وعلى هذه الصورة تتشكل العمامة . ويكتب ج فيسكيه (رحلة الى الشرق ، ص 182) الكلمة هكذا Takie — وهي فى نظر الرحالة « عرقية صغيرة من القطن المنقوش الذي يكون عادة مزركشا ومطرزا بنقوش غاية فى الابداع والنفاسة » . بل يذهب بركهارت فى كتابه عن الامثال المصرية المحدثة (الامثال العربية — رقم 101) الى القول بأن هذه الكلمة تشير الى عرقية او كلوتة بيضاء مصنوعة من القطن الناعم المطرز الحواشي عادة — وهي تلي الراس مباشرة وتلبس تحت الطربوش الاحمر » . ويتحدث بوكوك كذلك فى كتابه (وصف الشرق ، ج 1 ، ص 328) عن الكلوتة الصغيرة البيضاء المعمولة من الكتان التي تستعمل لتغطية الدماغ او تلبس تحت الطربوش . وبهذا المعنى كانت هذه الكلمة شائعة الاستعمال فى زمان كتابة الف ليلة وليلة . فنحن نقرأ فى هذا الكتاب (ط مكناكتن ، ج 1 ، ص 172) : « فنظروا